تمخضت الفأرة فولدت جبلاً

بقلم ميخائيل نعيمه

في سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل « مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا » جلس القلس على عرشه ونادى بأعوانه ثم خطب فيهم هكذا :

« منذ سنيّ الناس مقاليدهم وانا أدأب النهار والليل في سبيل اسعادهم . واجترح العجيبة بعد العجيبة لانقاذهم من بؤسهم وشقائهم

« سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم . فابتدعت لهم لساناً واحداً . وذلك اللسان أنا . أنا هو الحرف والمقطع والكلمة . وحيثما اجتمع اثنان يحكي تفاهما في الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر. تلك هي العجيبة الاولى

« ورأيتهم تتناتشهم ارباب كثيرة . فخلقت لهم ربّاً واحداً . وذلك الرب أنا . أنا هو الوزن والميزان والدين والديّان ، وأنا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل افكارهم وكل نياتهم . اما اربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير. تلك هي العجيبة الثانية

« ووجدتهم يتلكؤن الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الابواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا . والى باب واحد هو أنا . أنا هو الطريق والحجّة . أنا هو المدخل والمخرج . تلك هي العجيبة الثالثة

« وساكنت الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا يساكن راعي اغنامهم . وابن اميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم . وقسهم لا يشارب زانيتهم . وسمعتهم يتبرمون بذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على اعناقهم نيراً واحداً ، وذلك النير أنا. أنا هو النير والحراث والحارث. تحت نيري يمشي السلطان بجانب الراعي . وابن الاميرة بجانب ابن الجارية. والقس بجانب الزانية . تلك هي العجيبة الرابعة

« ودخلت قلوب الناس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف للحبّ في الرمانة . والفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فأطلقوا الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس

هذا المقال فصل من كتاب « جبران خليل جبران — حياته ومرتّه ، ادبه ، فنه » الذي وضعه ميخائيل نعيمه وينتظر صدوره قريباً

والحجّاب وظلت قلوبهم تصرخ انيٌ باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً . وجعلت ثمن الشهوة الطائلة أضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حرّرت قلوبهم من قلوبهم ، وتلك هي العجيبة الخامسة

« ومشيت في الأرض فوجدت ان الناس قد تقاسموها بالفتر والقيراط . واقاموا اقتسامهم حدوداً . واقاموا السيف حارساً لحدودهم . فلا يتعدى جارٌ حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة تخوم مملكة اخرى الاّ بقصد الغزو . فأتت للناس عبّارة تصل الحدود بالحدود وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبّارة أنا . أنا هو العابر والعبّارة . أمرُّ حيث السيف لا يجسر ان يلمع . واعبر حيث الجيوش تزبد من وجه المدفع . تلك هي العجيبة السادسة

« اما العجيبة العجيبة فهي اني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة . فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا اجناساً . وامة واحدة وكانوا أمماً . بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لاني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحداً وكذلك كساءهم ومأواهم

« انا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين انهم بشربها يشربون كل اصناف التراب والمعادن والنبات والحيوان والاقذار التي مرّت بها . كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاماً وشراباً وكساء ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى أين يأوون . اليكم هذا المثل :

« في الليلة البارحة باعت امرأة اشواق قلبها الثائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تلك تدعى في قاموس الناس بغيًّا ، وفي شرعهم آثمة ، وفي قاموس شرفهم فاجورة يتجنبها الشرفاء والاتقياء . وفي هذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخوراً للكنيسة وقدّمت البعض زكية الى الكاهن . اما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحاً لربه . واما الزكية فابتاع بها لحم ضأن واكل منهُ واطعم عياله . أو تحسبون ان ذلك الكاهن ، عند ما احرق البخور لربه ، احرق زرّ جرح في قلب شجرة عطرة ؟ الحق اقول لكم انهُ لم يحرق لربه سوى زرّ جرح في قلب بغيّ . أم تظنون انهُ اكل وعياله لحم ضأن ؟ الحق اقول لكم انهُ لم يأكل وعياله سوى لحم بغيّ ولم يشرب سوى دم بغيّ . واي الامرين اصعب : ان يؤاكل الكاهن البغيّ ويشاربها ام ان يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحماً واحداً ودماً واحداً ؟

« اليكم مثلاً آخر : امس دخل لص على ارملة عجوز كان قد سمع انها تحمل في عنقها كيساً من الفلوس . فارداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموساً بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذي ربحه منه ابتاع به ثوباً من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته راتباً للقاضي . والقاضي حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضي اكثر براءة من اللص ؟ الحق اقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دماً بريئاً . اما القاضي فشربه

« اجل . لقد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم انساناً واحداً من حيث لا يدرون . وقد اجترحت في سبيل إسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء اشقياء واصواتهم مايزال تصرخ اليَّ — اعطنا السعادة اعطنا السعادة ! فيا انا عازم ان آتيهم بعجيبة جديدة

« لقد بنيت لهم في سالف الاحقاب مدناً كثيرة . اما الآن فبخاطري ان ابني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطي هذه المدينة آذاناً تسمع بها كل لغات الناس . وعيوناً تبصر بها كل اشكالهم واجناسهم . وسأجعل احشاءها اوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار انفس انفاسها فلا تروي . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشي فيها اله الناس وشيطانهم جباً الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم في مجاس جحيمهم . ويجاور المعبد الخمارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكىء المدرسة والسجن على بساط واحد

وسأحتفن سكان هذه المدينة بعمل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيتسلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم في كل ساعة مايتلهون به من التفكير في بواعث الحزن والالم وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي . يكفرون بارباجهم اما بي فلا يكفرون . ويهربون من ارواحهم اما مني فلا يهربون . بل اليَّ في كل امر يفزعون . اذا همَّتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون : خفف من احمالنا . بل يقولون : زدنا من احمالك وسيضيق بهم سطح الارض فيتخذون في جوفها اتفاقاً . ويشيدون في الجو حصوناً عالية وابراجاً شامخة . وسأجعل اذنابهم طعاماً لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاماً لاذنابهم . فيأكل بعضهم بعضاً من حيث لا يعلمون

« ها انا قد بحت لكم بما في خاطري . وعليكم ان تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها في الحال وباشروا بالعمل وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل ان يبرح هذا المكان . وانا معكم حتى نهاية الازمان »

ما ختم الفلس خطابه حتى قام من بين الحضور كائن مجنَّح في عنقه غلٌّ من الذهب . وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه ابناؤه العشرون — توأمين فتوأمين — وفي عنق كل منهم غلٌّ من ذهب . وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا امام العرش خرّوا ساجدين ، وعفّروا جباههم قائلين :

« نقسم بوجه الفلس وبقفاه اننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه »

فقال الجالس على العرش :

« ايها الخيال ! لقد احسنتَ النطق والنية . ليكن في مدينتي العتيدة لكل فنٍّ من فنونك اثر »

ثم تقدّم شيخ جلبته هيبته اجيالاً كثيرة . وبداء في اصفاد من الفضة . وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه اولاده الخمسون توأمين فتوأمين وبدا كل منهم في اصفاد من الفضة وعلى عينيه قناع من فضة فعملوا وقالوا ما فعله الجيال واولاده . فقال الجالس على العرش :

« ايها الفكر ! لقد احسنت النطق والنية . ليكن في مدينتي العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر »

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . وحيا محوالعرش على عكازتين . وحيا وراءهُ على عكازاتهم اولاده المائة والتسعون — توأمين فتوأمين . وعلى عيني كل منهم نظارتان كبيرتان . ورجلاهُ مكبلتان بسلسلة من نحاس . فعملوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

« ايها العقل ! لقد احسنت النطق والنية . ليكن على كل باب من ابواب مدينتي العتيدة نظارتان كالتي على عينيك وعيون اولادك »

واخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلاّت كثيرة فبانت كأنها القنفذ . وقالت ما قاله الذين سبقوها . فاجابها الجالس على العرش

« ايها القلب ! لقد احسنت النطق والنية . قرّ عيناً وانعم بالاً . ففي مدينتي العتيدة ستجد منفذاً لكل مسلّة من مسلاّتك »

وعندها التفت القلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » والوزير الجالس عن يساره واسمهُ « المكر » وقال لهما :

« اليوم يومكما . انطلقا الى العالم الجديد حيث القبيلة الحمراء التي تملك الجزيرة المدعوة منهاتان وابتاعاها منها باخس ما يمكنكما »

وكاد القلس يحل مجلسهُ عند ما انتصبت فجأة امامه فتاة عريانة تقلّب في يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور . فترك القلس عينيه وقد ادهشتهُ الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها . وقال متلعثماً من شدة دهشته

« من اين جئتِ ايتها الفتاة ؟ »

« كنت هنا من قبل ان تكونوا »

« هذا مستحيل . ومن تكونين ؟ »

« انا الحياة »

« وهذا مستحيل والحياة في قبضتي . وماذا تبغين ؟ »

« سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها »

« وهذا ابعد من المستحيل . فليس يَعرف بيتَ السعادة والسبيلَ اليه الاّ انا . انا هو السبيل والهادي . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التي في يدك ؟ »

« السعادة »

« وهذا مستحيل المستحيل فالسعادة في مدينتي العتيدة التي شرعت اليوم في بنائها . ام انت تمزحين ؟ »

« بل انا في جدّ »

« ان في جدّك مزحاً يستفز ضحكي . لكن الكرة التي تقلبينها في يديك جميلة فهل تبيعينها ؟ »

« السعادة لا تباع ولا تشرى »

« هذا ضربٌ من الجنون . اذ ليس في مملكتي ما ليس يباع ويشرى . واذا سلّمنا بجنونك وقلنا ان السعادة لا تباع ولا تشرى . فكيف لمن يطلبها ان يحصل عليها ؟ »

« مَن قَبِلَني كما انا نال الجوهرة التي في يدي . مجاناً آخذ ومجاناً اعطي »

« يالك من داهية . افلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال السعادة من يدك ؟ »

« انزل عن عرشك وانزع نيرك عن اعناق الناس ودعهم يعطون مجاناً ما يأخذونه مجاناً »

« يالك من ماهرة وقحة . لا تخجلين حتى من ان تقفي امامي ولا كساء عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهرة . واسكبوا في فمها رصاصاً . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم . وآتوني بالجوهرة من يديها الاثيمتين »

فبادر الحراس الى الفتاة وانتزعوا الجوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش . وما كادوا يسترون الفتاة برداء من اردينهم حتى التفت القلس الى الجوهرة في يده واذا بها حجر اسود . والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء . فصاح مقهقهاً

« انها لمشعوذة كبيرة . اسحقوا رأسها ثم دعونا منها . وانصرفوا كل الى عمله . واياكم ان تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم . انطلقوا بسلام »

وكان كما امر القلس . فابتاع اعوانهُ جزيرة مانهاتان بثمن يوازي الاربعة والعشرين دولاراً . وراحوا يبنون نيويورك مدينتهم العتيدة . وما يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون . ويهدمون ويشيدون . وبين انقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن السعادة يفتشون

***

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله في قلوبكم » انزجّ بين تلك الملايين جبران خليل جبران